الحب العذري في الاسلام

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

— ١ —

بنو عذرة بطن من قضاعة ، وقضاعة من القبائل اليمنية التي نزحت من اليمن بعد سيل العرم ، فنزلت بشمال الجزيرة العربية إلى بلاد الشام

وقد اختص بنو عذرة من بين قبائل العرب بكثرة عشاقهم ، وامتاز عشاقهم على غيرهم بأنهم كانوا يلحون في الحب إلى حد الاستهانة بالموت فيه ، وأن الواحد منهم كان يخلص إلى من يعشقها ، ويهبها نفسه وحبه وكل شيء يعزه في هذه الدنيا ، وفي ذلك يقول جميل بثينة :

أصلّي فأبكي في الصلاة لذكرها ... لِيَ الويلُ مما يكتب الملكانِ
ضمنتُ لها ألاّ أهيمَ بغيرها ... وقد وثقتْ مني بغير ضمانِ

ويقول المجنون ، وقد كان من بني عامر :

ولمّا أبى إلا جماحاً فؤادُهُ ... ولم يَسلُ عن ليلى بمالٍ ولا أهل
تَسلّى بأخرى غيرها فإذا التي ... تسلى بها تغرى بليلى ولا تُسلي

وكان بنو عذرة يفتخرون بعشاقهم افتخار غيرهم بفرسانهم أو أجوادهم ، ويرون عشقهم مزية شرف ونبل ، ودليلاً على رقة القلب وصفاء النفس . وقد أخرج التنوخي عن عروة بن الزبير أنه قال : قلت لعذري : إنكم أرق الناس قلوباً ـ يريد أسباهم إلى الحب ، فقال : نعم ، لقد تركت ثلاثين شاباً خامرهم الشُّلُّ ، ما بهم داء إلا الحب

ولقد كان لجمال نساء بني عذرة أعظم الأثر في امتيازها بكثرة الحب ، لأن الحب في الغالب يجري وراء الجمال ، كما أن الجمال يورث القلب رقة ، والنفس صفاء ، فتشهيهما النظرة وتسترقهما الابتسامة . ومما ورد في جمال نساء هذه القبيلة ما روي أن زوّاراً قال يوماً لعذري : أتعدون موتكم في الحب مزية وهو من ضعف البنية ، ووهن العُقدة ، وضيق الرئة ؟ فقال : أما والله لو رأيتم المحاجر البُلّج ، ترشق بالعيون الدُّعج ، تحت الحواجب الزُّجّ ، والشِّفاهَ السُّمْر تبسم عن الثنايا الغر ، كأنها شذر الدر لجعلتموها اللاّت والعُزّى وتركتم الإسلام وراء ظهوركم

وروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : استنطقت أعرابياً عند الكعبة واستنسبته فإذا هو فصيح عذري ، فسألته : هل علقه الحب ، فأبى عن شدة ولوع ، فسألته ما قال في ذلك فقال :

تَبِعْتُ مَهَا الوحش حتى رمَيْنَنا ... من السَّهْلِ لا بالطائشات المخاطفِ
ضعائفُ يقتلن الرجال بلا دَمٍ ... فيا عجباً للقاتلات الضعائف
وللعين مَسْعًى في البلاد ولم يُفِدْ ... هوى النفس شيء كانقياد الظرائف

وبالجملة فليس حي أصدق في الحب من بني عذرة ، ولا تضرب الأمثال فيه إلا بهم ، كما قال في ذلك صاحب البردة :

يا لائمي في الهوى العُذْريِّ معذرةً ... مني إليك ولو أنصفتَ لم تَلُمِ

وكما اشتهروا بالحب إلى ذلك الحد اشتهروا بالعفة فيه أيضاً وقد روي عن سعيد بن عقبة الهمذاني أنه قال لأعرابي حضر مجلسه : ممن الرجل ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا . فقال : عذري ورب الكعبة . ثم سأله عن علة ذلك فقال : لأن في حيائنا صباحة ، وفي فتياتنا عفة

ويحكى من عفة عشاقهم أن جارية وشت بجميل بثينة إلى أبيها وأنه الليلة عندها ، فأتى وأخوها مشتملين معتمدين سيفيهما لقتله ، فسمعاه يقول لها بعد شكوى شغفه بها : هل لك في تلفٍ ما بي بما يفعل المتحابّان ؟ فقالت : قد كنت عندي بعيداً من هذا ، ولو عدت إليه لن ترى وجهي أبداً ! فضحك ثم قال : والله ما قلته إلا اختباراً ، ولو أجبت إليه لقربتك بيني هذا إن استطعت وإلا هجرتك ، أما سمعت قولي :

وإني لأرضى من بُثَيْنةَ بالذي ... لو ابصره الواشي لقرّتْ بلابله
بلا وبألاّ أستطيع وبالمُنَى ... وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العَجْلَى وبالحول ينقضي ... أواخره لا نلتقي وأوائله

فقالا : لا ينبغي إيذاء من هذه حالته ، ولا منع زيارته لها ، وانصرفا

وقد فتن كثير من الناس بهذا الحب العذرى ، ونظروا إلى أصحابه نظرة العطف والحنان ، وأشاروا بذكرهم فى الكتب ، وأعجبوا بصدقهم وعفتهم فى ذلك الحب ، وحاولوا أن يجعلوا من الشهداء من يموت بسببه ، ورووا فى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : من عشق فعف فمات دخل الجنة . وفى رواية من عشق فعف فظفر مات شهيداً . وفى أخرى وكتم ، وقد صحح هذا الحديث بسائر طرقه مغلطاى ، وأعله البيهقى والجرجانى والحاكم فى التاريخ

ولم يكد الشعراء يعرفون ذلك الحديث حتى أولعوا به وعملوا على إذاعته فى أشعارهم ، وتضمينها إسناده ومعناه . ومن ألطف ما جاء فى ذلك ما حكاه التاج السبكى عن أبى نواس أنه قال : مضيت إلى باب أزهر والمحدثون ينتظرون خروجه ، فما كان إلا أن خرج وجعل يعظم واحداً بعد واحد ، حتى التفت إلىّ فقال : ما حاجتك ؟ فقلت :

ولقد كتم رويتم عن سعيد عن قتاده
عن سعيد بن المسيب أن سعد بن عباده
قال من مات محبا فله أجر شهاده

فقال أزهر: نعم ، وذكر الحديث

ولأبى نواس فى تضمينه أيضاً :

حدثنا الخفاف عن وائل وخالد الحذاء عن جابر
ومعمر عن بعض أصحابه يرفعه الشيخ إلى عامر
وابن جريج عن سعيد وعن قتادة الماضى وعن غابر
قالوا جميعاً أيما فتى عف فمات عفة ذو خلق طاهر
فواصلته ثم دامت له على وصال الحافظ الذاكر
كانت لها الجنة مبذولة تمرح فى قرتها الزاهر
وأى معشوق جفا عاشقاً بعد وصال ناعم ناضر
فى عذاب الله مثوى له بعدا له من ظالم غادر

ولابن المبارك الإمام فى تضمينه :

حدثنا سفيان عن جابر عن خالد عن سهل الساعدى
يرفعه من مات عشقاً فقد استوجب الأجر من الماجد

وكان كثير من العظماء والعلماء يعطف على أولئك العشاق ، ولهم فى ذلك آثار ونوادر لا تحصى ، ومنها ما روى عن المهدى أنه قال : أشتهى أن أصلى على جنازة عاشق مات فى الحب

ومنها ما روى أن ابن الليث قاضى مصر كان يكتب فى فتيا ، فسمع جارية تقول :

ترى (؟) الحكومة يا سيدى على من تعشق أن يقتلا

فرمى القلم من يده وهو يقول : لا

وقد أخرج الخطيب البغدادى عن الغزى أنه قال : رأيت عاشقين اجتمعا فتحدثا من أول الليل إلى الغداة ، ثم قاما إلى الصلاة ، وقد قال فى ذلك بعض الشعراء :

لله وقفة عاشقين تلاقيا من بعد طول نوى وبعد مزار
يتعاطيان من الغرام مدامة زادتهما بعداً من الأوزار
صدق الغرام فلم يعل طرف إلى فحش ولا كف لحل إزار
فتلاقيا وتفرقا وكلاهما لم يخش مطعن عائب أوزار

وهذا كل شأن الحب العذرى على ما يقرأه الناس فى كتب الأدب ، وهى تأخذ الأشياء باللطف ، ولا تدقق فى أمرها كما يدقق غيرها . وقد كنت أقرؤها كما يقرؤها سائر الناس ، فلا ألتفت فيها إلا إلى ما يلتفتون إليه ، ويصرفنى التأثر بأحاديث ذلك الحب عن التدقيق فى أمره ، إلى أن قرأت مرة قصة وفود جرير وابن أبى ربيعة وجميل وكثير والأحوص والفرزدق والأخطل على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وقد طلبوا الإذن بالدخول عليه ؛ فكان يذكر لمن يطلب الإذن لهم بعضاً مما قاله كل واحد منهم فى الغزل ، ثم يأبى أن يأذن له بسببه ، ولم يأذن إلا لجرير من بينهم . وقد سوى فى ذلك المنع بين ابن أبى ربيعة والأحوص والفرزدق والأخطل وهم من فساق الشعراء ، وبين جميل وكثير وهما من أصحاب ذلك الحب العذرى ؛ فكانت هذه المفارقة سبباً فى لفت نظرى إلى التدقيق فى ذلك الشأن ، وبحثه من جهة الدين بحثاً صحيحاً ، لا إفراط فيه ولا تفريط ، ولا تشديد ولا تساهل ، لأن دين الله وسط بين ذلك .

ولا بد لى قبل هذا من ذكر قصة وفود أولئك الشعراء على عمر بن عبد العزيز ليرى القارىء تشديده فى أمر أصحاب ذلك الحب العذرى ، بعد أن رأى تساهل غيره فيه .

عبد المتعال الصعيدى